بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمةٌ

الحمد لله، وصلى الله على سيدنا محمد منبع العلم والنور ومصطفاه، وبعد:

فإن العلم بحر لا ساحل له، وبرٌّ لا نهاية له، يستفيد منه المستفيدون، ويهتدي به المتقون، ويستضيء به الصالحون، وإن كتابنا هذا «**مفيد العلوم ومبيد الهموم**» من أمتع ما يقرأ الطالب والعالم مما حوى هذا البحر، ففيه من العلوم الغزير الوفير، واشتمل من الكتب والأبواب المتفننة الكثير، وأراه لم يترك باباً من الأبواب التي يحتاجها المسلمون عامةً وطلبة العلم خاصةً من عموم مسائل الدين إلا طرقه، وقد نصح فبالغ في نصيحته في غير موضعٍ لخواص الأمة من أولياء أمورها، حيث إنه بدا في عدة مواطن في كتابه أنه يخاطب به زمرةً من الوزراء والرؤساء فضلاً عن المسلمين عامةً، فلم يأل جهدًا في نصيحتهم فنراه يقول مرة: «فهذا يا معشر إخواني من المسلمين مصرف الأموال ومظانها من الخراج والزكوات، والإقطاعات، والتركات، والفيء والغنيمة، أصحابها يموتون جوعًا ويضيعون عراةً، وترى الملوك والوزراء يصرفون ذلك إلى المطربين والمَسَاخِرة، ويشترون خيلاً وغير ذلك من الأواني والفرش والملبوس، ولكن رضوا بشراء الغلام، وشرب المدام، وضنوا من الدنيا بأهون بُلْغَةٍ بلثم غلامٍ أو شرب مدام؛ فويلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماء».

ويقول لهم في موطن آخر واعظًا لهم بحديث رسول الله ﷺ : «**من علق سوطًا بين يدي سلطان جائرٍ جعله الله حيةً طولها سبعون ألف ذراعٍ، فتسلط عليه**

في نار جهنم خالدًا فيها» – يعني: يناله طول مكث وبقاءٍ في جهنم إن كان من الموحدين المسلمين، وإن كان كافرًا فخلوده فيها أبدا لا خروج له منها.

وفي مواطن أخرى من الكتاب يتكلم عن غرائب الفقه وعن عقيدة المسلمين الصحيحة وعن عجائب المخلوقات وعن خصائص البلدان وخصائص الأحجار والمعادن، ويتكلم عن العقائد والملل المخالفة لملة الإسلام ويفنِّدها، ويرد على باطلها وكفريِّها، ويتكلم في أبواب أخرى عن النكاح وعلم الباءة وصفات النساء وخيرهن للرجال،.. إلخ.

فحقيقةً هو كتاب ماتع مفيد جدًّا لكل من قرأه بتمعُّنٍ، كيف لا، وقد استشهد فيه بالكثير من الآيات القرآنية، وبالأحاديث النبوية المطهرة مرشدًا للأمة خاصتها وعامتها؟ فجزاه الله عن أمة النبي ﷺ خيرًا، فإني أرى هذا الكتاب مثل أمهات الكتب في فوائدها للمسلنين، فهو يشبه «**إحياء علوم الدين**» للإمام الغزالي في حاجة الناس إليه، وإن كان «**الإحياء**» يزيد عليه بالفقه والعبادات والمعاملات ودقائق كثيرة عن النفس، وقد رأيته أخذ عن«**الإحياء**» في مواطن من الكتاب خاصةً عندما تكلم عن أصناف المغرورين في كل طبقة وعلاجهم، وإن لم يصرح بالأخذ في هذا الموطن.

وقد عملت على الآتي عند التعليق على الكتاب:

١- اعتمدت على طبعتين للكتاب: طبعة قديمة طبعت بالمطبعة والمكتبة السعيدية بجوار الأزهر الشريف بمصر سنة (١٣٤٥هـ) – خمس وأربعين وثلاثمائة وألف؛ أي منذ خمس وثمانين سنة، وقد اشتملت على أخطاء كثيرة بالرغم من ذلك.

٢- الطبعة الثانية طبعة حديثة مأخوذة عن السابقة، وقد اشتملت على نفس أخطائها وأضيف إليها أخطاء كثيرة جدًّا أخرى، بل سقط منها أربعة أبواب في آخر الكتاب هي: باب في أحوال الناس، وباب في خبر عاد وثمود، وباب في الوقائع والعظائم، وباب في فتنة الخوارج؛ فقمت بإثباتها من الطبعة القديمة.

٣- أثبت الآيات القرآنية مخرَّجةً من المصحف الشريف.

٤- علقت على الألفاظ التي تصعب على بعض القـــراء مـــن مظانهـــا مثـــل: **القاموس المحيط** للفيروزآبادي، **ومختار الصحاح** للـــرازي، **والمـــصباح المنير** للفيومي المقرئ.

٥- شرحت مواطن كثيرة فقهية أو عقائدية أو صوفية أو غيرهـــا كـــالموازين والمكاييل وهي كثيرة بما يزيل عنها الإشكال ويوضحها للقـــارئ العـــادي وطالب العلم.

٦- تكلمت عن أوزان أبيات الشعر بها وبينت من أي بحور الشعر العربية.

٧- ترجمت لمؤلف الكتاب.

٨- ترجمت لبعض أصحاب الكتب التي ذكر أنه أخـــذ عنهـــا، وهـــي ليـــست بالكثيرة بل معدودة في كلامه.

٩- كتبت هذه المقدمة، وحققت نسبة الكتاب للمؤلف، وهو ما يلي هذه المقدمة بالذكر.

والحمد لله وحده لا شريك له، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.

محمد عبد الرحمن الشاغول

obeikandl.com

تحقيق نسبة الكتاب لمؤلِّفه

قد تضاربت الآراء بشأن مؤلف هذا الكتاب فمن قائل (كشف الظنون لحاجي خليفة، ج٢، ص ١٢٧): إنه مجلد لبعض المغاربة، ويشتمل على قواعد الشرع وقانون الممالك، ونصرة المذهب، وتذكرة الآخرة، وتذكُّر العدو إلى غير ذلك. وتلى ذلك نفس عنوان الكتاب، غير أنه يشتمل على الألفاظ اللغوية من الطب. وقال: إن مؤلفه هو الأمير زكريا يحيى بن أبي محمد بن شيخ الموحدين أبي حفص.

أما سركيس فقد ذكر في **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، ج١، ص ٨٣٨ – ٨٣٩: أنه من تأليف الخوارزمي أبو بكر (المتوفى سنة ٣٨٣هـ).

أما المستشرقون من أمثال بروكلمان، فقد أورد في موسوعته «**تاريخ الأدب العربي**»، الجزء الأول، ص ٦٥٨: أن مؤلف كتاب «**مفيد العلوم ومبيد الهموم**»، هو جمال الدين القزويني المتوفى سنة ٥٥١هـ (١١٥٦م) وذلك بناء على المخطوطات التي اطلع عليها وهي:

١- مخطوطة غوتا رقم ١٧٣.

٢- مخطوطة باريس رقم ٢٣٣٤، ومخطوطة المتحف البريطاني، ٧١٢، ومخطوطات القاهرة التي جاء فيها أن المؤلف هو أبو بكر الخوارزمي، ثم عاد وذكر في SI من كتابه: أن المؤلف هو جمال الدين القزويني كما ورد في مخطوطة برلين ٨١٥٩، وكمبردج ١٠٨١. والله أعلم!

ويبدو لي أن مؤلف الكتاب ليس الإمام الخوارزمي أبا بكر محمد بن أحمد ابن يوسف الكاتب التركي المتوفى في حدود سنة (٣٨٠هـ) – ثمانين وثلاثمائة – كما في **هدية العارفين** – ج٢، ص ٥١ – وهو صاحب «**مفاتيح العلوم**» بل هو القاضي عماد الدين القزويني.

والسبب الأول في ذلك: أن القاضي القزويني أبو يحيى نقل عنه في ثلاثة مواضع، فقال في موضع: قال أبو بكر الخوارزمي: (رأيت هذه المواضع كلها فأطيبها وأحسنها غوطة دمشق – بارك الله فيها)، وقال في آخر: قال أبو بكر الخوارزمي: (ما وقع في يدي فهو على يد عدل)، وقال في ثالث: قال الخوارزمي: (من روى حوليات زهير واعتذارات النابغة.. إلخ، ولم يخرج في الشعر؛ فلا أشاب الله قرنه).

فلما وجد بعضهم هذه النقول الثلاثة في الكتاب توهموا منها نسبة الكتاب إلى الشيخ الخوارزمي، ولو كان كذلك لوجدنا هذا مطردًا في كتابه كعادة المؤلفين عندما يتحدثون عن أنفسهم في كتبهم فيقولون: قال فلان – يعنون بذلك أنفسهم.

والسبب الثاني: أن هناك تشابهًا بين الاسمين فالخوارزمي له كتاب «مفاتيح العلوم»، وهذا الكتاب اسمه «مفيد العلوم ومبيد الهموم»، فاشتبه على بعضهم ذلك فكتبه على ظاهر المخطوط، فتناقلته الأيدي حتى طبعته المكتبة السعيدة منسوبا للإمام الخوارزمي، وليس له. ولو كان الأمر كذلك لنسبنا الكتاب للإمام ابن سيرين مثلا عندما يقول القزويني في كتابه: قال ابن سيرين، أو إلى غيره من الأئمة المنقول عنهم.

والذي أوقعهم في هذا أن الإمام القزويني لم يستهل مقدمة كتابه بقوله مثلا: قال الشيخ القاضي عماد الدين أبو يحيى القزويني.. كعادة كثير من المؤلفين.

وأما عن قوله في موضع من كتابه: (وقرأت من مفيد العلوم أن الثلج يتراكم بتركستان أربعين ذراعاً.. إلخ)؛ فمعناه: قرأت من العلوم المفيدة من باب إضافة الموصوف إلى صفته، وإلا لو كان المقصود كتاب «مفيد العلوم» لقال: قرأت (في) مفيد العلوم بدل (من)، فلربما أحدث هذا إشكالاً وتغريرًا عند بعضهم في نسبة الكتاب أيضًا، فتنبه.

السبب الثالث: ورد في كلامه قوله: إنه تكلم بعض الملحدين والقائلين – كفرًا وزورًا – أن الأنبياء بخاصية العقل وصلوا للمعجزة، ومقصودهم أن يخرجوا الناس عن دين الله.. إلخ، فقال القاضي القزويني تعليقاً على هذا: وإن سلمنا جدلاً فلم يكن رجل منذ خمسمائة وأربعين سنة يعرف خاصية سلك المعجزة فيدعيها مع كثرة عددكم؟!.. إلخ.

فدل هذا الكلام أن هذا الزمن (٥٤٠هـ) زمان متقدم على زمان المؤلف وليس الإمام الخوارزمي ممن عاش إلى هذا الوقت بل توفي في حدود (٣٨٠هـ)، فثبت بذلك أن الكتاب لا ينسب قطعًا إلى الإمام الخوارزمي.

والسبب الرابع: أنه قال في موضع: (وصعد هذا الزنديق يعني: ابن سينا الباطني أبا علي بن الحسن وهو الضياء – صعد قلعة الموت في سنة (٤٧٠هـ) فدل أيضا أن الكتاب ليس للخوارزمي لأن هذا التاريخ بعده بحوالي (٩٠) عامًا.

والسبب الخامس: قوله في موضع من الكتاب: (منذ خمسمائة سنةٍ يفهمون عنها – أي: عن لغة العرب –.. إلخ).

فدل هذا على أن الإمام الخوارزمي ليس هو المؤلف قطعًا للكتاب، ومن قال بهذا فهو واهم لا يدري ما يقرأ بين يديه. وقد كانت المكتبة السعيدية طبعت الكتاب وجعلت مؤلف الكتاب هو الإمام الخوارزمي، وهو خطأ كما بينته، فتنبه.

السبب السادس: أنه نقل عن عدة كتب متأخرة عن زمن الخوارزمي:

١- الجواهر، وهو **(جواهر الأخبار)** لأبي محمد الحسن بن أبي عقامة اليمني المتوفى سنة ٤٨٠هـ : ٤٨٣هـ.

٢- نقل عن «**التقريب**»، وهو للإمام الشيخ قاسم بن محمد بن القفال الشاشي الشافعي، المتوفى سنة (٤٧٨هـ).

٣- **تاريخ المقدسي**، وهو كتاب «**تاريخ المقدس**» للشيخ أبي القاسم مكي بـــن عبد السلام الأنصاري الشافعي، المتوفى سنة (٤٩٢هـ).

فهذا جزم أخير بأن المؤلف ليس هو الإمام الخـــوارزمي، وأن الأقـــرب أن يكون هو القاضي الإمام عماد الدين أبو يحيى القزويني كما هو مثبت على ظـــاهر بعض المخطوطات والمطبوعات تبعًا لها.

أما عن نقله عن الإمام أبي عبيدة في كتابه «**المثالب**» المتوفى سنة (٢١٠هـ)، وعن الصولي، المتوفى سنة (٣٢٤هـ)، وابن سيرين من التابعين، فكل هـــؤلاء وإن كانوا متقدمين على زمن الإمام الخوارزمي، إلا أنه يدفع احتمال نسبة الكتاب له ما تقدم ذكره من التواريخ المتأخرة عنه.

هؤلاء جملة من نقل عنهم في هذا الكتاب، وتبقى لنا اثنان **أحـــدهما**: الإمـــام محيي الدين يحيى السلماسي، فهو يقول عنه: (سأل بعض تلامذتنا الإمـــام محيـــي الدين يحيى السلماسي)؛ فهذا يدل على أنه معاصر لمن ألف «**مفيد العلوم**».

والثاني: قول مؤلف «**مفيد العلوم**»: (حدثنـــــــي السيد الإمام جلال الـــدين أبو القاسم علي بن يعلى بإسناده.. إلخ)؛ فهذا يدل على أنه شيخ أو قرين للمؤلف.

فمعرفة هذين التاريخين يفيدنا في الجزم بمن هو المؤلف هل هـــو القاضـــي عماد الدين زكريا القزويني المتوفى سنة ٦٨٢هـ أو جمال الدين القزويني المتـــوفى سنة ٥٥١هـ كما ذكره بروكلمان في «**تاريخ الأدب العربي**»، وإن كنت أرى أنه هو القاضي عماد الدين المتوفى سنة (٦٨٢هـــ) لما يقع من تشابه بين كتابه هذا وكتبه الثلاثة المذكورة لاحقاً في ترجمته، وهي "**عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**"، و"**عجائب البلدان**"، و"**آثار البلاد وأخبار العباد**"؛ وذلك من حيث الموضوع وتعـــدد الفنون فيها، والتطرق للعجائب في أكثر من باب، والله تعالى أعلم.

ولو أنني اطلعت على مخطوطات الكتاب التي يذكرها بروكلمان وغيره، أو مخطوطة برلين وكمبردج وغيرها؛ لكان تحقيقي لهذه النسبة أكثر إيضاحًا وبيانًا واستدلالاً من هذا، ولكنني طلب مني التعليق على المطبوع، وليس تحقيق المخطوط ابتداء، ولم تتوفر لي مخطوطاته.

ومما أوقع المستشرقين في الاشتباه أو أوقع غيرهم فيه هو إبدالهم عنوان «**مفاتيح العلوم**» للخوارزمي بـ «**مفيد العلوم**» للقزويني، وهذا يسهل وقوعهم فيه، وقد وقع غيرهم فيه من أهل الصنعة والشأن ، أفلا يقع المستشرقون فيه؟!

والحمد لله تعالى على ما فتح به، وهو مني جهد المُقِلّ، وما كان فيه من صواب فمن فضل الله وسعته، وإن يكن الخطأ فهو مني، وأسأله الهدى والتقى، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه إلى يوم الدين.

محمد عبد الرحمن الشاغول

obeikandl.com

ترجمة الإمام القزويني

نسبـــــه:

هو زكريا بن محمد بن محمود القاضي عماد الدين أبـــو يحيـــى الأندلـــسي الأنصاري القزويني قاضي واسط.

مولده ووفاته:

ولد سنة (٦٠٥هـ) خمسة وستمائة، وتوفي ســنة (٦٨٢هـ) اثنتـــين وثمـــانين وستمائة.

من تصانيفـــه:

١- **آثار البلاد وأخبار العباد. في التاريخ. في مجلد.**

٢- **عجائب البلدان.**

٣- **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات. مطبوع** [١].

(١) هدية العارفين – للبغدادي: ج١ – ص ٣٧٣.

openkandil.com

obeikandl.com

كتاب

مفيد العلوم ومبيد الهموم

للإمام القاضي عماد الدين القزويني

رضي الله تعالى عنه

ونفعنا به

obeikandl.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة المؤلف

الحمد للّه الذي ما للعالم سواه خالق وصانع، ولا له عما يريد مانع ودافع، وكل عزيز على بابه بالذل خاشع، وكل سلطان لسلطنته خاضع متواضع لا وضيع إلا وهو له واضع، ولا رفيع إلا وهو له رافع، ولا متبوع إلا وهو في حكمه تابع، وما سواه للبلاء عن الخلق دافع، ولا شريك له ولا منازع، الخير والشر بتقـديره لا بتدبير الطوالع، والنفع والضر بقضائه لا باقتضاء الطبائع[1]، الجماد والحيوان له مطيع وسامع، والسلطان والرعية له ساجد وراكع، وهو للكل بالموت قامع، ثم ليوم الحشر حاشر وجامع، وحقا ثم حقا إن ما توعدون لصادق وإن الدين لواقع.

وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، سراجه لامع، وسيفه قاطع، ودينه جامع، وهو لأمته شافع، فـصلى اللّـه عليـه وعلى آله وأصحابه، أبي بكر الطائع، وعمر القانع، وعثمان الـساجد والراكـع، وعلي الذي بيده باب خيبر قالع، وسلم تسليما كثيرًا.

هذا، وقد شهد سلطانَ العقل وقضى به حاكم الشرع أن العالم من العـرش إلى الثرى مرآة مَجْلُوَّة للناظرين، وآية كاشفة للمتبصرين، وكل من ينظـر فيهـا

---

[1] أي: وليس كما يقول الفلاسفة أن الأشياء لا يجوز خروجها عن طبائعها وأمزجتها، فالنـار محرقة لا بطبيعتها بل بخلق الله تعالى الإحراق فيها عند مماسة اليد لهـا، ولـو شـاء الله تعالى تخلف الإحراق عنها كما في: «قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم»، فـالقول بالطبع مروق عن الملة كما قرره الأئمة المحققون. قال العلامة الدردير:

ومن يقل بالطبع أو بالعلة فذاك كفرٌ عند أهل الملة

يرى أن الصانع رب العالمين، ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات: ٢١].

فجواهر العالم[١] تناجي وأجسامه تنادي بلسان الحال، فهو أفصح من لسان المقال ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١] فجوهر يقول: هل مِنْ خالقٌ غير اللّه؟ وجوهرٌ ينادي: صبغة اللّه ومن أحسن من اللّه صبغة.

ولقد أصاب لَعَمْرُ اللّه صاحبنا المطلبي في المعنى ﷺ حيث قرأ: صبغة[٢]، وجوهر ينطق، ويقول: ﴿ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴿٩﴾ ﴾ [المزمل: ٩].

وذوات العالم تنادي أنفسها، وذواتها شهدت شهادة لا شك فيها بأن اللّه تعالى ليس له شريك، أشهد لو نظر واستبصر أهل التلحيد لوصلوا إلى حقيقة التوحيد.

فيا عجبا كيف يعصي الإلـ ـه أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد[٣]

فالدلائل الصامتة والناطقة شاهدة بوحدانيته، ولكن الإرادة الأزلية فرقت بين المؤمنين والكافرين، أنعمت على قوم بالمعرفة والإيمان، وخصصت قومًا بالخذلان

---

(١) الجواهر: جمع (جوهر)؛ وهو ماهيةٌ إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضوع، وهو منحصر في خمسة: هَيُولى وصورة وجسم ونفس وعقل. التعريفات – للعلامة الجرجاني. ط مصطفى الحلبي – ص ٧٠ باختصار.

(٢) صبغة الله: فطرة الله أو التي أمر الله تعالى بها سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، وهي الختان. «القاموس المحيط».

وفي تفسير النسفي: صبغة الله: دين الله، فأُمر المسلمون بأن يقولوا لهم: آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم، فلا صبغة أحسن من صبغته – يريد الدين أو التطهير.

مدارك التنزيل وحقائق التأويل – للإمام أبي البركات النسفي – ج١، ص ٩٣ مع تصرف واختصار.

قلت: وقد استعمل المؤلف لفظ الصبغة استعمالاً عاماً يتفق مع عموم لفظ الصبغة، وهو رائق فائق.

(٣) البيتان من بحر المتقارب.

والحرمان، وأخبر القرآن القديم فقال: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: ٧].

أتـــاك المرجفـــون بـــرجم غيـــب علـــى دهـــش وجئتـــك بـــاليقين[١]

ولقد وفق اللّه أهل الحق من بين البرية، وخصهم بهـذه الهديـة، وأكـرمهم وعظمهم بالإسلام والسنة، والتوفيق والعصمة، فعرفوه وعظموه، وقالوا: جهلـوك فجحدوك ولو عرفوك لعبدوك، فنادوا هلموا فللّه الحجة البالغة حجة العقل، فانظروا في وجود الحوادث أولا[٢]، ثم انظروا في حدوثها ثانيًا، واستدلوا بحدوثها على قدم محدثها ثالثًا، واذكروا منَ الدلائل قليلاً كفى بذلك جملةً وتفصيلاً، استدلوا بالتغيرات على المغيِّر، وبالحركة والسكون على حدوث العالم، واعلموا أن لنـا ربًّـا قَـوَامُ الأشباح بنعمته وبقاء الأرواح والأجسام برحمته، ونحن حيرى في كُنْـه عظمتـه، فأصبحوا وغايتهم العجز والإذعان، وجَهْرُهم الأمان الأمـان، يـا مزيـل الـدول والزمان، يا من كل يوم هو في شان، يا مقلب القلوب والأبصار، احفظ علينا نعمة الإيمان واعصمنا من البدع والكفر والطغيان، فاعتقادنا ومكنون فؤادنا هذه الكلمة: ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن.

ما شـئت لا مـا شـاءت الأقـدار فـاحكم فأنـت الواحـد القهـار[٣]

غيـــره:

أبـــا هنـــد فـــلا تعجـــل علينـــا وأنظرنـــا نخبِّـــرك اليقينـــا[٤]

يا هذا، عميت عين لا تفوز بالنظر إلى صنع اللّه، وخَاسَ عقل لم يحتط مـن حكمة اللّه، وخذل عبد لم ينظر في صنع اللّه، وخاب امرؤ لم يتذكر بأيام اللّه، **وخاب**

---

(١) البيت من بحر الوافر، ووزنه: (مفاعلتن مفاعلتن فعولن)، مرتين.
(٢) أي: وجودها أولاً في علم الله تعالى الأزلي القديم.
(٣) البيت من بحر الكامل: ووزنه: (متفاعلن متفاعلن متفاعل)، مرتين.
(٤) البيت من بحر الوافر، ووزنه: (مفاعلتن مفاعلتن فعولن)، مرتين.

الكافرون وخسر المبطلون وضل المتفلسفون وهلك الملحدون، فبأي حديث بعده يؤمنون؟! فالأرواح نوازع والنفوس جوازع، والأسرار ضوائع، فبم التعلل وَحَتَّامَ[١] التمهل؟! وما هذه الدعوى وعند الصباح يحمد القوم السرى؟ فطوبى لعبد جعل التوحيد سمير فكره، ونجّي قلبه، ومطية سيره إلى ربه، فإن قَذَر الآدمي بالدين القويم والهدي المستقيم، والنجاة في التوحيد لمن يعتقده، وقيمة كل امرئ ما يحسنه. ومن أُلبس سِرْبال الإسلام فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكَّر إلا أولو الألباب. فيا لها نعمةً على جسد، فهو مَلِكٌ أُعطَى النعمة الكبرى والفضيلة العظمى، فله عز في عز، ودولة في دولة، فالأمر أمره ولله دره فما أعظم قدره تذكر.

هنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم وللمفلس المسكين ما يتجرع[٢]

ومن سلب ثوب إيمانه واتَّهم في نبيّ زمانه فحق له البكاء، فقد بطل وجوده وربِّ السماء، فيعيش بين الورى كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ [طه: ٧٤].

فالنعمة نعمة الدين والدولة للمسلمين، والعاقبة للمتقين، قال مالك بن برهة ابن نهشل المجاشعي سيد وفد بني تميم: يا رسول اللّه، ألست أشرف قومي؟ فقال: «إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك خُلُقٌ فلك مروءة، وإن كان لك دين فلك شرف، وإن كان لك مال فلك حَسَبٌ، وإلا فأنت والحمار سواء» فالمعاصي في جنب التوحيد تتلاشى، وكل الصيد في جوف الفرا.

هذا، وقد علم كل عاقل منصف وفاضل متصف أن الدنيا دار قلعة، والحال حال خدعة، والعمر كما ترى مار بسرعة. فالدنيا حلم والآخرة يقظة[٣]، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام، فما هي لَعَمْرُ اللّه إلا أنفاس معدودة وآجال محدودة

---

(١) أي: حتى متى يكون التمهل، فيقال في (إلى ما): إلاَم، وفي (حتى ما): حتَّما. هكذا الحال إذا اتصلت هذه الحروف بما.

(٢) البيت من بحر الطويل، ووزنه: (فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن) مرتين.

(٣) وفي الخبر: «الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا».

وآمال ممدودة، فكل نفس خطوة، وكل خطوة ميل، وكل شهر منزلة فَرْسخ، وكل سنة منزلة، فإذا بلغ الأجل فقد بلغ المنزل، فإذا خطيبٌ ينادي:

فألقت عصاها واستقر بهـا النـوى كما قر عينا بالإيـاب المـسافر[١]

فالعاقل يأخذ من نفسه لنفسه، ويقيس يومه بأمسه، فإن مدة العمر قليلـة، وصحة الجسم مستحيلة، والدهر خائن والمرء لا محالة حائن[٢]، وكل ما هـو آت فكائن، وكل يوم يسوق إلى غده، وكل امرئ مأخوذ بجناية لسانه ويده. مـسكين ابن آدم انقطعت أسِرَّتُه يوم قطعت سُرَّته، فؤاده طالب وهو مطلوب، وجميع ما له مسلوب. شبابه إلى هَرَم، وسلطانه إلى اتِّضاع، وماله إلى ذهاب، وصـحته إلـى سقم، وحياته إلى ممات، متصل ذلك بعضه إلى بعـض اتـصال الليـل والنهـار، والشتاء والصيف. أحسن بامرئ غرته الدنيا، هل يبلغن مغرور منهـا إلا خِرْقـة وكِسْرة؟ إن كسرى لم يزد على أن تشاغل بما أوتي عن إخوته، فجمـع لـزوج امرأته، أو زوج ابنته، أو امرأة ابنه، أو لعدو خارق.

إن في ذلك لآيات فهل من مدكر؟ وهل من عاقل معتبر ينظر إلـى حـوادث الزمان وعواقب السلطان؟ فالعقل يدعو إلـى الاعتبـار، والحكمـة تحـث علـى الاستبصار، الساعات تهدم الأعمار، ومنادي الشرع ينـادي الاعتبـارَ الاعتبـار. فاعتبروا يا أولي الأبصار.

نسير إلى الآجال في كـل سـاعة وأيامنـا تطـوى وهـن مراحـل
ولم أر مثـل المـوت حقـا كأنـه إذا مـا تخطتـه الأمـاني باطـل
وما أقبح التفريط في زمن الـصبا فكيف به والشيب في الرأس شـامل
ترحل من الدنيا بزاد مـن التقـى فعمـرك أيـام تعـد قلائـل[٣]

---

(١) البيت من بحر الطويل.
(٢) الحائن: الأحمق. "القاموس المحيط".
(٣) الأبيات من بحر الطويل.

ونقل أن بعض الملوك نظر إلى ملكه فأعجبه ذلك، فقال: إنه الملك لولا أنه هالك، وإنه لسرور لولا أنه غرور، وأنه ليوم لو كان يوثق بغده. فأبلغ العظات النظر إلى محل الأموات، فعواقب الأمور فوات، وكلنا يا صدر الرؤساء أسراء العبر والممات، والمنزل الذي يستوي فيه العبيد والسادات. انظروا يمنة ثم اعطفوا يسرة، هل ترون أحدا من الرجال والنساء أخذ قبالة البقاء بخطوط مسابح السماء.

عجبا عجبت لغفلة الإنسان ... قطع الحياة بغرة وتوان
فكرت في الدنيا فكانت منزلا ... عندي كبعض منازل الركبان
مجرى جميع الخلق فيها واحد ... وكثيرها وقليلها سيان
أبقي الكثير إلى الكثير مضاعفا ... ولو اقتصرت على القليل كفاني
للّه در الوارثين كأنني ... بأخصهم متبرم بمكان

هذا، وقد ساقني تقدير اللّه إلى جمع كتاب، وتهذيب علم، وترتيب قواعد وترصيع عبارات، وإيراد إشارات، هو ذخيرة السلطان ويتيمة الزمان ونزهة الإخوان، من قال جامع سفيان[1] فقد صدق، ومن قال نادرة الزمان فما أغرب، فلا غرو، وللشمس أن تشرق، وللبدر أن يتألق، يغازل فيه الشاميون العراقيين، وينافس به العراقيين الخراسانيون، وكل به متنافسون، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

عمري من كان له هذا الكتاب لا يضيق صدره أبدا، ويعرف به قواعد الشرع، وقانون الممالك، ونصرة المذهب، ورد الخصم، وتذكر الآخرة، وقاعدة العدل، وعاقبة الأمور، ونذير العدو، إلى غير ذلك. وأنفقت فيه شطرا من صالح عمري، وسميته «مفيد العلوم ومبيد الهموم». ورتبته على اثنين وثلاثين كتابا وهي:

---

[1] أي: كجامعٍ في الحديث منسوبٍ لأمير المؤمنين في الحديث وهو سفيان الثوري؛ تنبيها على علو قدر كتابه في العلم.